Journal of Arabic Language and Literature (JALSL) • Vol 4, Issue 3 (2025) • P: 41 - 34
https://journals.ajsrp.com/index.php/jalsl
ISSN: 2790-7317 (Online) • ISSN: 2790-7309 (Print)

The sufficiency of contrastive interpretation in the novel "As If It Were a Canopy" by Moroccan Author Suad Al-Nasser, as a model.

Dr. Sanae Harboul
Ministry of Education | Morocco

Received: 23/05/2025
Revised: 30/05/2025
Accepted: 15/06/2025
Published: 15/09/2025

* Corresponding author: sanae.harboul74@gmail.com

Citation: Harboul, S. (2025). The sufficiency of contrastive interpretation in the novel "As If It Were a Canopy" by Moroccan Author Suad Al-Nasser, as a model. *Journal of Arabic Language Sciences and Literature, 4*(3), 34 – 41. https://doi.org/10.26389/AJSRP.G250525

2025 © AISRP • Arab Institute for Sciences & Research Publishing (AISRP), United States, all rights reserved.

• **Open Access**

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: This study aims to explore the topic of "Contrastive Interpretation in Contemporary Morocca Women's Novels," by adopting the approach of Dr. Mohamed Bazzi, which seeks to open up to mechanisms that contribute to the study of narrative discourse by linking it to life and values through a comprehensive approach based on modern rhetorical techniques, foremost among them contrast. This enables the reader, through numerous dualities, to delve into the narrative, probe the depths of the discourse, and connect it to human reality according to a new perspective. The study was applied to the novel "As If It Were a Shadow" by the Moroccan writer Suad Al-Nasser, in which the study attempted to trace the various contrasts present in the novel at the level of the title, spaces, events, and values, and to understand their significance and function.

Keywords: Contrastive, Mohamed Bazzi, As If It Were a Shadow, Suad Al-Nasser, Interpretive Rhetoric, Contrast of Spaces, Contrast of Values.

كفاية التأويل التقابلي في رو اية:(كأنها ظلة) للكاتبة المغربية سعاد الناصر أنموذجا

الدكتورة / سناء حربول
وزارة التربية والتعليم | المغرب

المستخلص: جاءت هذه الدراسة لتبحث في موضوع: التأويل التقابلي في الرواية النسائية المغربية المعاصرة، من خلال اعتماد مقاربة الدكتور محمد بازي، التي تهدف إلى الانفتاح على آليات تسهم في دراسة الخطاب الروائي من خلال ربطه بالحياة والقيم، عبر مقاربة شمولية ترتكز على تقنيات بلاغية على رأسها المقابلة، التي تمكن القارئ من خلال العديد من الثنائيات، من استكناه المسرود، وسبر أغوار الخطاب، لربطه بالواقع الإنساني، وفق تصور جديد.

طبقت هذه الدراسة على رواية: كأنها ظلة، للكاتبة المغربية سعاد الناصر، حيث حاولت من خلالها تعقب مختلف التقابلات الموجودة بالرواية، على مستوى العنوان، والأفضية، والأحداث، والقيم، ومعرفة دلالاتها، ووظيفتها.

الكلمات المفتاحية: التأويل التقابلي، محمد بازي، كأنها ظلة، سعاد الناصر، البلاغة التأويلية، تقابل الأفضية، التقابل بين القيم.

مقدمة

يؤسس الدكتور محمد بازي لأبرز المشاريع الرائدة في مجال تحليل الخطاب، مشروع يعتمد على مقاربة تسعى إلى الانفتاح على بلاغة جديدة يطلق عليها: " البلاغة التأويلية"، بلاغة تتجاوز ما هو مرتبط بالدوال اللغوية إلى آفاق أرحب. فالكاتب استثمر جميع إمكاناته الثقافية والفكرية والنقدية للخروج بتصور جديد، مفاده أن البلاغة يجب أن تسهم في التغيير، وألا تظل حبيسة الألفاظ وما يطرأ عليها من محسنات، كما عليها أن تنفتح على ما أسماه "البلاغة الموسعة".

وينطلق الكاتب أيضا في مشروعه من ربط الأدب بالوجود الإنساني، فهو يعتمد على مرجعية تخليقية للحياة، تنحو نحو تخليق الأدب، والسمو به نحو العفة والمثل العليا، وانتهاج نهج الأدب القاصد.

وفي المقابل نجد أن الكاتبة سعاد الناصر في أعمالها الأدبية تنطلق من التصور نفسه، ففي جل كتاباتها كانت تسعى إلى مخاطبة متلق بليغ، من خلال ترسيخ كم هائل من القيم، سواء في إبداعها الشعري، أم النثري. حيث إنها تنطلق من مرجعية دينية وأخلاقية تهدف إلى التغيير وتصحيح الفهم لدى القارئ، وهذا ما يسميه محمد بازي ب"الأدب القاصد."

بناء على ما سبق، ارتأيت أن أشتغل عل عمل من الأعمال الروائية للكاتبة سعاد الناصر، وهو روايتها المعنونة ب: " كأنها ظلة"، وذلك وفق منظور التأويل التقابلي، لأنها تتيح أمام القارئ كما هائلا من الإمكانيات التحليلية، محولة إياه إلى قارئ بليغ، يستطيع تأويل المعطى الأدبي وفق تصور كوني شمولي، وهو التصور نفسه الذي تنطلق منه الكاتبة.

ومن هذا المنطلق تتأسس هذه الورقة البحثية على محاولة الكشف عن أبرز التقابلات الواردة في رواية :"كأنها ظلة"، من خلال الإشكالات الآتية:

- ما أوجه التقابل بين الخطاب الروائي والخطابات الأخرى في الرواية؟.
- كيف أسهمت مختلف التقابلات في ترسيخ القيم التي رامت الكاتبة تحقيقها؟.
- كيف يمكن الخروج بالخطاب في رواية " كأنها ظلة" بواسطة التأويل التقابلي من مجرد خطاب روائي، إلى خطاب بليغ منفتح على تصور كوني؟.

منهج البحث:

ارتكزت هذه الدراسة على منهج التأويل التقابلي، الذي يقوم على مقارنة العناصر المختلفة في النصوص أو الخطابات، للكشف عن المعاني الخفية والروابط بينها، إذ تم تطبيقه على المتن المدروس، عن طريق تحليل بنياته الجزئية المتقابلة ظاهريا أو باطنيا، أفقيا أو عموديا، باعتبار النص كونا لغويا متقابلا، واعتمادا على هذا المنهج، تم رصد التقابلات المختلفة، سواء على مستوى عتبة العنوان، أم على مستوى بعض مكونات البنية السردية، خاصة بنية الفضاء، وما ترتب عن ذلك من تأويلات دلالية متنوعة أفرزت عنها عملية التقابل.

الدراسات السابقة:

ارتكزت جل الدراسات التي أنجزت حول نظرية التأويل التقابلي عند محمد بازي، على الجانب النظري، واستندت بالخصوص على تحليل النظرية لمعرفة إيجابياتها وسلبياتها، وكذا الإضافة النوعية التي حملتها للخطابات الأدبية والبلاغية:

- الدراسة الأولى: (السعيد عبد اللطيف: نظرية التأويل التقابلي، الانبثاق التصوري وآليات التجسيد النصي، رؤية في مشروع الباحث المغربي محمد بازي، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلد3 العدد 8 ديسمبر، 2018): عمدت هذه الدراسة إلى تحليل التصور التأويلي التقابلي لمحمد بازي، مبينة أسسه النظرية ومفاهيمه التي تستند على كون جميع النصوص والخطابات مبنية على التقابل، حيث ذكر الدارس بعضا من هده المفاهيم خاصة منها تقابل الذوات، تقابل الخطاب ،وغير ذلك من الأنواع، ليخلص إلى أن هذه النظرية تحمل في طياتها إيجابيات وسلبيات، لكنها تجربة غنية تستحق الاهتمام.
- الدراسة الثانية:(سليمة جلال، نظرية التأويل التقابلي من التأصيل إلى التجريب، مجلة فتوحات، العدد الثاني، جوان، 2015): كادت هذه الدراسة تعيد جل النقاط التي اعتمدتها الدراسة السابقة، إذ إن الباحثة درست مشروع محمد بازي بالطريقة نفسها، محاولة تفسير نظريته التأويلية التي تربط بين الدوائر الصغرى(النصية)، والدوائر الكبرى(السياقية)، مبينة مدى فاعلية هذه النظرية في قراءة النصوص على اختلافها. وقد أشارت الدراسة إلى التحولات التي عرفها المشروع، ومراحله التاريخية، وكذا بعض الجوانب التطبيقية له في كتاب منظره محمد بازي:" تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، على مستوى النصوص الشعرية، وبعض النصوص السردية، لاسيما قصص كليلة ودمنة. وقد أشادت الدارسة بهذه النظرية، مبينة أنها تبرهن على أصالة الباحث وجرأته في الطرح.
- الدراسة الثالثة:(نظرية التأويل التقابلي لمحمد بازي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، القدس العربي، فبراير، 2013): انصب هذا البحث على دراسة كتاب محمد بازي:" نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، حيث بينت أن صاحب

النظرية يفتح مشروعا معرفيا كبيرا، ويدعو إلى توسيع هذه التصورات وتطعيمها معرفيا عبر التنظير والتجريب والتقريب. وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي في دراسة الكتاب، راسمة أهم خطوطه العريضة، وأهم ركائز المشروع.

وخلاصة القول، فإن الدراسات التي أنجزت حول الموضوع، هي دراسات قليلة، وأغلبها تعتمد المنهج الوصفي، وتستند على تفسير التصور النظري العام الذي حمله محمد بازي في مشروعه النقدي، محاولة تسليط الضوء على أهم مفاهيمه. وما عدا الجانب التطبيقي للباحث نفسه، والمعتمد على توظيف الجهاز المفاهيمي للمشروع، على بعض النصوص فإننا نكاد لا نجد دراسة طبقت هذه التقنيات والآليات على متون أدبية سردية، إلا في بعض النصوص ذات الطابع المدرسي.

1- التقابل العنواني:

يعد العنوان في نظريات النص الحديثة "عتبة قرائية، وعنصرا من العناصر الموازية التي تسهم في تلقي النصوص، وفهمها، وتأويلها داخل فعل قرائي شمولي ، يفعل العلاقات الكائنة والممكنة بينهما".[1] ومن هنا فلا يمكننا أن نفصل بين هذه العتبة المهمة، وبين مضمون الرواية. فما جاء في العنوان يعتبر مفتاحا بالنسبة للمتلقي، فقبل القراءة يقوم بوظيفة إثارية وإيحائية – كما رمى إلى ذلك جيرار جينيت Gerard genette - .أما بعدها فيمكنه من إيجاد صلة الوصل بين الدوال المستعملة فيه، وبين ما جاء في الرواية، مستعملا التأويلات المختلفة " حسب الوضع الاعتباري لكل قارئ وأغراضه من القراءة".[2]

يتكون عنوان الرواية من خمس كلمات تشكل فيما بينها مركبا إسناديا تصدره ناسخ حرفي " كأن"، واسمه: " هاء الغائبة"، وخبره: " ظلة". وهو أسلوب تشبيه يعتمد على أربعة أركان أساسية : المشبه، المشبه به، أداة التشبيه ووجه الشبه". وما اختيار الكاتبة عنونة روايتها بهذا الأسلوب البلاغي سوى دليل على اعتمادها أسلوب التقابل، الأمر الذي يحتاج إلى متلق بليغ بارع في التحليل والتأويل، كما أن هذا الاختيار يبرهن على أن عنصر التقابل حاضر منذ البداية، فالعنوان "نص مصغر، ومرآة عاكسة للمحتوى النصي، ومفتاح تأويلي لأنه يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته... ،إنه يقدم لنا معونة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه."[3]

ارتأت الكاتبة إذن، أن تركز على الوظيفة التشويقية الإغرائية، من خلال تركها لعنصر المشبه مبهما، يدل عليه ضمير المؤنثة الغائبة، مقتبسة هذا الأسلوب من القرآن الكريم، ففي سورة الأعراف، الآية 171، يقول الله تعالى :(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون)[4] هذه الآية عند المفسرين، نزلت في على بني إسرائيل، حين بدأوا في جدال موسى عليه السلام ومطالبتهم له بتخفيف التوراة، "قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها؟ فراجعوا موسى مرارا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع وارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء، قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل: لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل".[5] يمكن أن نعتبر إذن، أن الظلة رمز للحياة بجميع متناقضاتها، وأنها مرفوعة فوق رؤوس الشخصيات بمشاكلها وأزماتها، تكاد تسقط عليهم في أية لحظة، كما يمكن اعتبارها رمزا للمحبة التي تظلل تلك الشخصيات.

إن التقابل الأول الموجود بين الآية و العنوان، يبدو على مستوى استعمال الضمائر: مذكر/ مؤنث. أما الثاني فيتمثل في الدلالة. وعموما فباللجوء إلى التأويلات المختلفة لها داخل المتن، يمكن التوصل إلى ما يلي:

أ. **<u>الظلة من خلال بداية الرواية ونهايتها</u>**: تدل جل المؤشرات على أن هذه الظلة يقصد بها المحبة، حيث تقول الساردة في بداية الرواية: "حين تتطاير شرارة واحدة من الكره أو البغض أو الفساد تنتشر بسرعة، تحرق نارها الأخضر واليابس.. لكن حين تتطاير شرارة الحب أو التسامح أو الصدق لا يكاد يلتفت إليها أحد..."[6]، وتختم الساردة سرد الأحداث في الرواية قائلة: إن الحب هو أكثر شيء حقيقي ، إن لم تصدقني فاسألي قلبك ... ففي أعماقك ما يستحق أن يفيض على من حولك، ويعاش بحقيقته"[7].

من خلال الشاهدين السابقين يتجلى لنا أن ما يظلل العالم ويفيض من الإنسان نحو غيره هو الحب، ومقابله الكره، الذي ينتشر في المجتمع انتشار النار في الهشيم، حتى لا يكاد أحد يلتفت إلى القيمة المقابلة له، لكن الحب ينتصر في النهاية، فيتغلب على الألم. وفي هذا الإطار ارتأت الساردة أن تختتم الرواية بأبيات شعرية لجلال الدين الرومي، في مقابل النثر الذي استهلت به أول مقطع للشخصية نفسها، وهنا يمكن تحديد التقابلات التالية: بداية/ نهاية، نثر/ شعر، كراهية/ محبة.

(1) محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، دار الأمان، الرباط الطبعة الأولى، 2011 ص15.

(2) المصدر السابق، ص17.

(3) ، محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسالك التأويل، دار الأمان، الرباط الطبعة الأولى، 2011 ص21، (بتصرف).

(4) سورة الأعراف، القرآن الكريم، رواية ورش، الآية 171.

(5) مجلة الكوثر، الإلكترونية، الأربعاء 17 يوليو 2019، الزيارة يوم 8 يناير، 2023، الساعة 16:10 بتوقيت المغرب.

(6) سعاد الناصر، كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019، ص3.

(7) المصدر السابق، ص: 212.

ب. ***<u>الظلة من خلال أحداث الرواية</u>***: تدور أحداث الرواية حول موضوع دخول الطيب –أستاذ بإحدى الثانويات- إلى السجن بسبب ذنب لم يرتكبه، حيث اتهم باغتصاب تلميذته نجوى، ومحاولة خطيبته أندلس – وهي محامية- البحث عن الدلائل التي تثبت براءته دون جدوى، ذلك أن المتحكمين في خيوط القضية كثيرون، تربط بينهم خيوط الفساد المجتمعي، وتتناسل عن الحدث الرئيس أحداث أخرى تبرز الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل . وقد تمكن الطيب من الحصول على براءته في نهاية المطاف، لكن بعد أن استنزف جسديا و نفسيا حين ظل مدة طويلة يقبع في دهاليز السجن، ولاقى ما لاقاه من صنوف التعذيب والتنكيل، إلى أن انطفأت بداخله جميع ملامح الإنسانية. تقول الساردة أندلس واصفة حالته إثر خروجه من المعتقل: "يا إلهي، هل يمكن للسجن أن يغير الإنسان، لم يعد الطيب الذي عهدته، كتلة من النشاط والحيوية، والتمرد أيضا... هل ترك روحه هناك؟".[8] ثم تضيف قائلة: " أصبح يجنح للصمت كثيرا، وحين يتكلم، يخرج صوته مرتعشا... نظراته التي كانت تشع بالتوهج والثبات انطفأ بريقها، أصبحت نظرات تائهة لا تستقر على شيء".[9]

يتضح إذن، من خلال قراءة الأحداث أن هناك صراعا كبيرا بين الحق والباطل في الرواية، جسدته شخصية "الطيب"، المتهم البريء الذي زج به في السجن بسبب ذنب لم يرتكبه، وفي المقابل نجد شخصية "باطرون المخدرات" والد نجوى الفتاة المغتصبة، الذي يستطيع شراء الذمم بأمواله، ويفعل كل ما في وسعه لإنقاذ ابن شريكه من العقوبة، والحفاظ على ماء وجهه.

تأسيسا على ما سبق سنحاول الربط بين العنوان والمضمون، فالعنوان كما سبقت الإشارة يحمل في طياته تناصا بارزا مع الآية 171 من سورة "الأعراف"، ومن المعروف أن الأعراف لغة عند جمهور المفسرين سور يفصل بين الجنة والنار " يقف عليه أقوام استوت حسناتهم وسيئاتهم، حيث دفعتهم حسناتهم لتجاوز النار بسلام، ولكن لم يتبق لهم حسنات ليبلغوا الجنة، فيقفون بين الجنة والنار".[10]

فحال شخصيات الرواية إذن ،كحال من يقف على الأعراف، ولو استندنا على ما اصطلح عليه الدكتور محمد بازي:" تقابل حال الذوات"، فسنجد أن أحوالهم تكاد تكون متقابلة ، فالشخصيتان الرئيسيتان "أندلس"و"الطيب" تتواجدان داخل معترك الحياة، محاولتين الثبات على المبادئ، والحفاظ على قيمهما، وذلك بمعارضة أنظمة مستبدة، وأوضاع ظالمة، ومجتمعات فاسدة"، وهو المقصد نفسه الذي نزلت من أجله سورة " الأعراف"، التي تناص العنوان مع آية منها؛ إذ يذكر ابن كثير أن الأعراف "حجاب بين الجنة والنار، سور له باب، قال ابن جرير: "والأعراف جمع عرف، وكل مرتفع من الأرض يسمى عرفا".[11] فيمكن القول إذن، إن هذا التناص ليس حكرا على العنوان فقط، بل يطال بنية الرواية؛ إذ إن هذه الأخيرة تتناص مع السورة في طريقة بناء الأحداث، وملامسة الشخصيات لمقصد السورة، بالبحث عن سبل تحجب بها الأزمات والمشاكل، ووضع أسوار عالية بينها وبين الفساد.

لقد كانت الكاتبة سعاد الناصر موفقة في انتقاء العنوان، فالقارئ الذي يبحث عن هوية النص من خلال عنوانه، سيدرك لا محالة أن هناك رسالة مشفرة، لكن باعتماد التقابل النصي، وبلاغة القراءة سيتمكن من فهم مغزاها، وأول ما سيتضح له أن لجوء الروائية إلى التناص له ما يبرره، خاصة لو ربطناه بالمرجعية الدينية للكاتبة، كما أن اختيار آية مقتبسة من سورة الأعراف بالذات ليس اختيارا عبثيا، بل تكمن وراءه عدة مقاصد، أبرزها التقابل بين دلالات السورة عامة، التي تهدف إلى ترسيخ قيم الأمل وعدم اليأس، لا سيما في أوساط المستضعفين، الأمر نفسه الذي ترمي الكاتبة إليه، من خلال تضمينها روايتها قيم المحبة، والتفاؤل، والأمل، وتجنب جميع الإحباطات، والوقوف سدا منيعا في وجه كل أشكال الفساد والبغي.

2- تقابل الأفضية:

من المعلوم أن الأحداث في الأعمال الروائية لا تكون منعزلة عن الفضاء أو الحيز الذي يكون حاضنا لها، وتختلف تسمية النقاد لهذا الفضاء التخييلي، وفي هذا السياق يفرق الباحث " كولدنستين" Goldenstein بين المكان والفضاء، فيرى أن مصطلح المكان مناسب لفن القصة القصيرة، بينما مصطلح الفضاء، فهو مناسب لجنس الرواية لما فيها من أحداث كثيرة وأزمنة مختلفة وشخوص متعددة، فهي على قدر من السعة مقارنة بالقصة القصيرة".[12]

ولقد أضحى المكان محورا من "المحاور الرئيسية التي تدور حولها نظرية الأدب... كما لم يعد معادلا كنائيا للشخصية فقط، بل أصبح يكتسي قيمة خاصة جعلت منه عنصرا جماليا ودلاليا في العمل الفني والأدبي، ويعطيه أبعادا خاصة"[13].

(8) سعاد الناصر، كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019،ص 204.

(9) المصدر السابق، ص 204.

(10) زينة برقوق، سورة الأعراف، موقع موضوع الإلكتروني.https://mawdoo3.com

(11) أبو الفداء ابن إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير ابن كثير، دار حزم، الطبعة الأولى، 2000، ص 758.

(12) إسماعيل زغودة، بنية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة، عبد الجليل مرتاض نموذجا، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، 2013-2014، ص112.

(13) فاطمة زبن يحيى، المكان داخل النص الروائي (الدلالة، الأنماط، الأبعاد)، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد1، يناير 2013،ص112.

ومن منطلق، التأويل التقابلي، نلفي تقابلات عدة، ما بين أفضية مفتوحة وأخرى مغلقة، أفضية قديمة وأخرى حديثة، كما سنجد تقابلا بين فضاء حقيقي وآخر افتراضي.

- التقابل بين الفضاء الافتراضي والواقعي:

تنبني الأحداث في الرواية على وجود عالم افتراضي وآخر واقعي، وعلى الرغم من أن الأول لا هندسة له ولا أوصاف تدل على الحيز الذي يشغله، إلا أننا لا يمكن أن ننفي عنه صفة الفضاء، فالمكان " الموظف في العمل الروائي يختلف تماما عن المكان الموجود في الواقع، لأن الأول مستعمل لأغراض جمالية وفنية، لا تحده حدود فاصلة ومضبوطة، وغير مقيد بقيود معروفة، بينما الثاني فهو محدود المساحة ومعروف المعالم"[14]

إن التقابل بين المكان الافتراضي والعالم الواقعي في الرواية تجسده عدة مؤشرات، وقد ارتأت الكاتبة أن تصف الأول- أي الافتراضي- بصفات تدل على غموضه، و كذا تأثيره في تشكيل الشخصية. كما جعلت منه نقطة الانطلاق في المتن، فمنه انتقلت الساردة إلى العالم الواقعي، عندما جعلت البطلة "أندلس"تخرج من عالم الحاسوب، والشاشة الزرقاء، إلى فضاء المقهى حيث التقت الساردة بها. فقد كان ذلك الفضاء الافتراضي يشكل بالنسبة لها هاجسا تطرح حوله عدة تساؤلات عن مفهوم الكينونة: " ما هي التحولات التي نعيشها بانتقالنا من كينونتنا الواقعية إلى كينونتنا الجديدة التي لا نملك فيها سوى وجود رقمي افتراضي."[15] فانطلاقا من هذه التساؤلات نتبين معالم هذا العالم الجديد، الذي يقابل كينونة الإنسان الواقعية، محولا إياه إلى مجرد رقم في فضاء مبهم، وهنا نستحضر ما قاله الروائي الأردني "محمد سناجلة" متحدثا عن رواية الواقعية الرقمية، وواصفا التغيرات التي حصلت فيها. حيث يقول: "فلا زمان ولا مكان قادر أن يفصل الإنسان عن أخيه الإنسان حتى أمسى العالم كله ليس قرية صغيرة كما كان شائعا في العصر التكنولوجي، بل أصغر من حجرة صغيرة في بيت.. أصبح العالم شاشة، مجرد شاشة"[16]، ومن هنا فإنه يرى بأن الرواية الجديدة لم تعد تنطلق من الحلم، بل "تنطلق من المعرفة، وهذه الرواية مغامرة في الزمن الرقمي الافتراضي، وفي المكان الرقمي الافتراضي."[17]يبدو إذن من خلال ما سبق أن التجريب حاضر في رواية "كأنها ظلة"، ويتجلى في تماهي الأحداث ما بين العوالم، وتماهي الشخصيات فيما بينها، فلا يعود هناك تمييز ما بين الواقعي والافتراضي، ومن هذا التقابل تستطيع الكاتبة تمرير مرجعياتها و رؤاها حول القضايا المطروحة في المتن.

إن الكاتبة إذن، تجعل الفضاء الافتراضي فضاء للوهم، حيث تقول على لسان الساردة: "ما عدنا نملك سوى بضعة أوهام، نريد تصديقها بقوة، ونسجلها في مواقع التواصل الاجتماعي."[18] فهذا الشاهد يعكس رؤية الساردة مما يعرض على الشاشة الزرقاء، حيث صارت المصداقية غائبة، وحل محلها خطاب الوهم، الذي صار مسيطرا لدرجة الإقناع.

لقد تعمدت الساردة في الرواية إخراج البطلة "أندلس" من هذا الفضاء الوهمي، لأنه يعتبر بالنسبة إليها غير آمن، تقول أندلس متحدثة عن أوراقها التي قررت تقديمها للساردة على .أرض الواقع الفعلي: " لم أرد أن أتركها حبيسة عالم افتراضي، تكفي لمسة زر خاطئ فيه يمحو كل شيء، لقد تسللت من ذاكرتي إلى الحاسوب بشكل مبعثر، وها هي أمامك، اصنعي منها ما تشائين، أضيفيها إلى ما عندك، عساك تشكلين منها عالما حقيقيا."[19]

يبدو من خلال ما سبق، ، بأن تمرير الخطاب إلى القارئ عن العالم الافتراضي عن طريق التقابل، هو أكثر بلاغة من الوصف المباشر، إذ يمكن للقارئ الحصيف (أو ما يسميه محمد بازي: البليغ)، أن يأخذ فكرة واضحة عن معالم هذا الفضاء الرقمي الجديد، الذي غير حتى المرجعية الأدبية الروائية. فها هي أندلس تطلب من الساردة أن تجعل من أوراقها، التي كانت مخزنة في حاسوبها، أوراقا ذات هوية حقيقية في عالم حقيقي، لأنها تخشى ضياعها

- التقابل بين الفضاءات المفتوحة والفضاءات المغلقة:

تتميز الكتابة عند سعاد الناصر بما سماه النقاد "الكتابة بالوجدان"، إذ أنها تسهم من موقعها الإبداعي في صياغة الوجدان الجمعي أو ترميمه، جراء ما يتعرض له اليوم من قصف وتدمير ممنهج"[20]، وهذا يتقاطع مع ما يسميه محمد بازي "إصلاح الكون"، لأنه يرى أن الأدب

(14) إ سماعيل زغودة، بنية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة، عبد الجليل مرتاض نموذجا، ص121.

(15) سعاد الناصر، كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019،ص4.

(16) محمد سناجلة، رواية الواقعية الرقمية، صفحة كتب،www.facebook /The.books، ص12.

(17) المصدر السابق، ص32.

(18) كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019، ص7.

(19) كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019، ص 10.

1- (20) الكتابة بالوجدان،، دراسات في سرد سعاد الناصر، تنسيق أحمد رزيق، مركز مدارك للدراسات والأبحاث في العلوم الإنسانية وعلوم التربية، فاس، الطبعة الأولى، 2019، ص6.

لا يمكن أن يكون أدبا إلا إذا كان هدفه هو " إصلاح الكون، وتعميره بالعدل، وتنمية الإنسان وحفظ دينه وعقله وماله وعرضه، إنه أمر يشجع حقا على إمكانية استثمار كل الفكر الإنساني البناء للالتقاء في فكرة الإنسان البليغ المؤمن بوجود بليغ"،[21] وتنعكس هذه الفلسفة على عملها الروائي، فحتى على مستوى وصف الفضاءات الروائية، تبدو بلاغة الكاتبة حاضرة، فهي تجعل كل الأماكن مرتبطة سيكولوجيا بالشخصيات في علاقات تأثير وتأثر، الأمر الذي يقحم القارئ في الأحداث، متعاطفا مع بعض الشخصيات تارة، ومتحاملا على أخرى تارة أخرى. كما تجعل سيرورة الأحداث في هذه الفضاءات موجِهة له – أي القارئ- إلى معرفة الرؤيا التي تحملها الكاتبة.

وسنأخذ في هذا الصدد نموذجين لهذه الفضاءات، حيث سنركز على السجن بوصفه فضاء إجباريا مغلقا، والمنزل بوصفه فضاء اختياريا مفتوح، لملاحظة مختلف التقابلات بينهما، وأثر ذلك في خدمة وظيفتهما داخل البناء الروائي عامة.

3- فضاء السجن:

يرى الناقد حسن بحراوي في كتابه: "بنية الشكل الروائي أن السجن يشكل " نقطة انتقال من الخارج إلى الداخل، ومن العالم إلى الذات بالنسبة للنزيل بما يتضمنه ذلك الانتقال من تحول في القيم والعادات وإثقال لكاهله بالإلزامات والمحظورات، فما إن تطأ أقدام النزيل عتبة السجن مخلفا وراءه عالم الحرية حتى تبدأ سلسلة عذابات لن تنتهي سوى بالإفراج عنه... وأحيانا فإن آثارها تظل ملازمة له لمدة طويلة..."[22].

إن مجرد تواجد السجين بفضاء مغلق يجعله ممزقا بين عدة متقابلات، (بين الحرية والقيد، بين الأمن والخوف، بين الإنسانية والعبودية) .وهذا الأمر هو ما جسدته شخصية الطيب، الذي توارى خلف القضبان بسبب جريمة لم يرتكبها، فكان السجن مضاعفا بالنسبة إليه.

تبدأ مرحلة السجن بالنسبة للطيب منذ تواجده بمخفر الشرطة، فهناك ينتقل من عالم الحرية، حيث إنسانيته وكرامته محفوظة، إلى عالم الأسر وغياب الكرامة الإنسانية: " لاحظ أن الغرفة التي يجلس فيها معتمة، انتابته الحيرة، هل المكان معتم، أم الزمان مساء؟... يبدو أنه في المكتب الأسطورة، ذلك المكان الذي طالما شك في وجوده داخل مديرية الأمن... يمضي فيه المعتقل أياما قد تطول أو تقصر، قبل أن يحاكم، بعد أن يمر بأصناف من التعذيب والإذلال، ليكون شاهدا على نفسه وعلى غيره، شاهدا غياب العدل والأمن في وطن يغتاله الطغاة"[23].

العتمة، الظلمة، التعذيب والإذلال، ناهيك عن طول مدة الإقامة: كلها مؤشرات دالة على غياب العدل والأمن، فلو تحقق ذلك العدل لما تم تعذيب الطيب، وهو بريء، ولما تم تحويله إلى السجن وتركه هناك بدون محاكمة، إلى أن خارت قواه، واستنزفت طاقته، وضاعت إنسانيته: " حين جلس طالعته جدران صلبة يتراكم عليها غبار السنين ، ودهون كالحة، وعدد كبير من الأجساد المطروحة كيفما اتفق.. كان في ردهات مديرية الأمن وأقبيتها قد سمع عن الاكتظاظ في السجن، عن العشرات من النزلاء المحشورين جنبا إلى جنب في أفرشة مهترئة، منهم من لا يجد مكانا فوقها فيفترش الأرض، لكن لم يتصور أبدا مثل هذا الحشر"[24] . وعلى الرغم من أن الطيب حاول ألا يجعل من هذا الفضاء دافعا له لليأس، فكان يستمع إلى حكايات النزلاء، يقرأ الكتب التي تحضرها له أندلس، ويقوم بتزجية الوقت حتى لا يتأثر نفسيا بطاقة المكان، لكن تأثير المكان كان أقوى فحرج الطيب من ذلك الفضاء المغلق شخصا آخر، لا يشبه ذلك الشخص الذي دخل: " أصبح يجنح للصمت كثيرا، وحين يتكلم، كان الصوت يخرج منه خافتا مرتعشا.. نظراته التي كانت تشع بالتوهج والثبات انطفأ بريقها، أصبحت نظرات تائهة لا تستقر على شيء"[25]. فيظهر إذن، من خلال الدوال المتقابلة في هذا الشاهد: (الصمت/ الكلام، التوهج/ الانطفاء، التيه/ الاستقرار) أن فضاء السجن أثر بشكل كبير في الشخصية، وحولها إلى شخصية يائسة، متقوقعة على نفسها، فاقدة لأية رغبة في الحياة.

4- فضاء المنزل:

يعتبر غاستون باشلار Gaston bachelard بأن المكان ليس فقط مجرد أبعاد هندسية، بل "هو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز"[26]، ومن هنا يمكن أن نقول حسب نظرية "التأويل التقابلي"، بأن هناك تقابلات بين الفضاء وبين الشخصيات، وأن الشخصيات تؤثر في االفضاء، والعكس صحيح. فتواجد الشخصيات بالمكان قد يضفي عليه دفئا وحميمية، كما أن انسحابهم ومغادرتهم قد يفرغه من تلك المشاعر.

1- (21) محمد بازي البلاغة الكبرى، الجزء الأول، دار كنوز المعرفة للنشر التوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2022، ص107.

(22) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991، ص55.

(23) كأنها ظلة،مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، ص19.

(24) كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019، ص118.

(25) المصدر السابق، ص204.

(26) غاستون باشلار، جماليات المكان، ، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1984ص 31.

وإذا كان انغلاق الأماكن يؤثر سلبا في الشخصيات، كما هو الشأن بالنسبة لفضاء السجن، فإن الأماكن المفتوحة، قد تؤثر بشكل إيجابي في مسار الأحداث؛ لأنها تدفع بالشخصيات نحو القيام بفعل يعيدها إلى طبيعتها الأولى، للشعور بالاستقرار نفسه ، والأمان عينه. فالبيت كما يقول باشلار: "هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكارا وذكريات وأحلاما إنسانية".[27]

ومن هذا المنطلق، نجد التقابل واضحا بين الفضاء المغلق؛" السجن"، والفضاء المفتوح "المنزل" في الرواية. وهنا نستحضر من خلال المتن وجود عدة بيوت، نختار منها "عش الزوجية" المستقبلي للبطلة "أندلس" وخطيبها، ومنزل والدي أندلس .

تقول أندلس: "كنت قد ذهبت اليوم إلى المنزل الذي اخترناه أنا والطيب عشا لحبنا. حين دخلت، تلقفتني غربة لفت المكان. الغرفتان ما زالتا فارغتين، بدأنا بتأثيث الصالون الذي أحطناه بأرفف الكتب، ووضعنا أريكتين، حرص الطيب أن يضع فوق حائط إحداها لوحة تظهر فيها حمامة مفردة جناحيها، تطير في سماء صافية، في فمها غصن زيتون"[28].

تحضر في هذا الشاهد عدة مؤشرات دالة على دفء المكان وحميميته، من الأثاث الموجود به، إلى رمزية الحمام والزيتون، اللذين يوحيان للقارئ بالسلام الداخلي، والاطمئنان النفسي، فالمشهد برمته يدل على أن أصحاب المكان ينتمون إلى الطبقة المثقفة الراقية، وأن العلاقة التي تربط بينهم هي علاقة حب وعشق، ومما يدل على ذلك بناؤهما لعش الزوجية معا، وتأثيثه تدريجيا. لكن المفارقة تكمن في شعور الساردة بالغربة بمجرد دخولها المكان، لأن خطيبها في هذه اللحظة مودع بالسجن، فرؤيتها للبيت تختلف، فهذا التقابل الوارد بين: حميمية الأثاث ودفئه/ واغتراب الساردة يمنح الوصف بلاغة أكبر، كما يسمح للمتلقي بالاقتراب أكثر من نفسية الشخصية، والشعور بالاغتراب الذي تشعر به.

وبالعودة إلى منزل أندلس العائلي، نلاحظ أن الروح المسيطرة عليه هي روح الحب والمودة، ورغم الإكراهات الخارجية، فإنه يظل الملاذ والمأوى بالنسبة لها كلما اشتدت بها النوازل. تقول:" نهضت متثاقلة، رأسي يؤلمني، شربت حبة أسبيرين، ثم عدت ألوذ بغرفتي، عازمة على الاعتذار من صديقتي"[29] ، فأن تلوذ بمكان ما معناه أنه يشكل بالنسبة لك رمزا للراحة والأمان، كما أنه يعد الفضاء الطبعي للبوح وتفريغ المكبوتات الداخلية. تقول أندلس بعد انتهاء معاناتها واجتماعها بالطيب في غرفة واحدة: "وبقدر ما كنت أتطلع إلى الاختلاء به في غرفتنا، بقدر ما كنت أهاب هذه اللحظة. سالت دموعنا كما لم تسل من قبل، اختلطت في وجهينا، وامتزجت ملوحتهما، تذوقتها ندية، كانت مثل غيث يتنزل على صحراء قاحلة، فتمسها السكينة والعذوبة".[30]

هكذا إذن، تمسي الغرفة مكانا للسكينة، وتشكل بالنسبة للشخصيتين حافزا وعاملا مساعدا على التحرر من الهموم، وغسل القلب من الأدران التي علقت بها. من خلال ما سبق، يتضح أن التقابل الوارد بين الفضاءات في الرواية، يقرب القارئ من الاطلاع على القيم السائدة داخلها، من خلال العلاقات التي تربط المكان بالشخصية، فالسجن هو ذاك الفضاء الذي يبرز تفشي قيم الاستبداد والظلم، ومساواة المجرمين بغير المجرمين، كما يكشف عن مجتمع مغلق يحفل بالإجرام، وما بين الجلادين والضحايا تغيب الحقائق. أما فضاءات البيوت، فهي رمز للاستقرار النفسي والروحي، فيها تستريح الأرواح المنهكة من عناء الحياة، وبها تلوذ محتمية من مكدرات المجتمع.

5- التقابل بين القيم:

يرى محمد بازي أنه "ليس من أدوار نقد الخطاب الذي مرجعه "البلاغة الكبرى تطهير العالم من الشر، ولكن التقليل منه. ليس عليه اقتلاع النزوع إلى الخطيئة، ولكن الإسهام في الإقلاع عنها."[31] وبناء على هذا القول يحضر الخطاب في رواية: "كأنها ظلة"، حيث تسمو الروحانيات على الماديات، ويعلو الخطاب الديني المعتدل المتوازن، الذي ينهل من التصوف أحيانا، لتحقيق السمو للنفس البشرية، وترجيح كفة الروح على حساب المادة التي صارت طاغية على المجتمع.

تنزع الكاتبة إذن، من خلال شخصيات الرواية، إلى ترسيخ رؤية قيمية، معتمدة في بلورتها على تقنيات روائية فنية عالية، عبرت عنها أحيانا من خلال اللغة التي يطغى عليها المعجم الصوفي، إذ نجد المتن حافلا بمصطلحات تنتمي لعالم التصوف: (المريد، الشيخ، الفيوضات، التجليات، الفتوحات، الكشف، الرحلة، العروج،الزاد، السفر...)، وأحيانا أخرى من خلال الاقتباسات من النص القرآني، والتناص معه، وفي بعض الأحيان من خلال تمرير خطاب قيمي على لسان الشخصيات، في نوع من البوليفونية التي تسمح بالاستماع إلى مختلف الآراء و الاطلاع على الرؤى المختلفة، وفي هذا السياق، نورد مقطعا للتقابل على مستوى الخطابات، ممثلا بحوار بين المحقق والطيب في مخفر الشرطة:

""- مللت منك، يجب أن ننهي هذه المهزلة الليلة، وقع وخلصنا".

خرج صوته خافتا: "- هل أوقع على أشياء لم تحصل؟ هل أقر بأشياء لست طرفا فيها؟"

(27) المصدر السابق، ص38.

(28) سعاد الناصر، كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019ص50-51.

(29) كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019، ص68.

(30) المصدر السابق، ص206.

(31) محمد بازي، البلاغة الكبرى، الجزء الثاني، دار كنوز المعرفة للنشر التوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2022، ص15.

"عدنا لنفس النغمة... آ سيدي الرواية التي ذكرت لا تدخل عقل أي واحد، أنت اغتصبت البنت، وصدمتها، وفكرت أن تفبرك الرواية التي حكيتها""[32].

في الشاهد أعلاه ترسل الكاتبة خطابا واضحا للقارئ، مفاده أن الظلم والقهر يتملكان المجتمع، وأن الإنسان مهما كان بريئا فسيجد من يدخله إلى مستنقع القذارة، وتعبر عن هذا التقابل بين الخطابات من خلال تلوين الأصوات باللغة التي تناسبها، فعلى لسان المحقق نجد معجما زاخرا بألفاظ الأمر والنهي :(يجب، وقع، خلص)، وآخر دالا على الإثبات: (أنت اغتصبت الفتاة، فكرت أن تفبرك الرواية..)، كما تميل اللغة إلى نوع من العامية: (آ سيدي). أما الطيب فكانت لغته مليئة بالتساؤلات المغلفة بالنفي : (هل أوقع على أشياء لم تحصل؟، هل أقر بأشياء لست طرفا فيها؟). مما يوحي بحيرته واستغرابه مما يقع.

وفي إطار حادثة الاغتصاب، تستحضر الكاتبة قصة اغتصاب الأندلس، لما تحمله من دلالات رمزية، فهي تقابل بين قصة الطيب، وما لحقه من جراء انهيار القيم المجتمعية، وبين تاريخ الأندلس، وما لحق المسلمين خلاله من ظلم وقهر. وتقابل أيضا بين الفئة المثقفة التي تتخذ من القيم ديدنا لها في حياتها، كما هو الشأن بالنسبة لأسرة أندلس وأسرة الطيب، وبين فئات مجتمعية تعيش على الماديات، بجميع السبل الموصلة إليها، من متاجرة في المخدرات، وشراء للذمم، كما هو الشأن بالنسبة لوالد نجوى " الحاج حمو"، وشخصية " الأقرع" باطرون المخدرات في السجن.

خاتمة:

لقد تطرقنا في هذه الدراسة إلى معرفة مدى إمكانية قراءة الرواية وفق تقنيات التأويل التقابلي التي اعتمد عليها العديد من البلاغيين ومن بينهم الدكتور محمد بازي، حيث مكنتنا هذه الكفاية من رصد التأويلات العديدة التي يمكن للناقد والقارئ معا التوصل إليها إثر اعتماده لهذه المقاربة، كما أن البناء السردي للرواية موضوع الدراسة، وفق الثنائيات المختلفة، نقل للقارئ صورة مصغرة عن المجتمع الذي تعيش فيه الشخصيات؛ مجتمع مليء بالمتناقضات، الغلبة فيه للأقوى، يسيطر فيه أصحاب النفوذ المادي، وتنقلب فيه القيم، فيدخل الطيبون السجن، ويتنعم الظالمون بالحرية، يتمسك فيه أصحاب المبادئ بمبادئهم كما لو كانوا يقبضون على الجمر، ويعيش فاقدو القيم حياتهم طولا وعرضا دون حسيب أو رقيب، لكن بالمقابل، فإن الروائية باعتمادها هذه المقاربة، تنشر ثقافة الأمل والتفاؤل بغد أفضل، غد تنتشر فيه المحبة، فتفيض على الجميع، وتظلل المجتمع بظلها، غد تُواجَه فيه الصعاب وتحقق جميع الأمنيات.

لائحة المصادروالمراجع:

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادروالمراجع:

- أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى،2000،ص758.
- أحمد رزيق، الكتابة بالوجدان، دراسات في سرد سعاد الناصر، مركز مدارك للدراسات والأبحاث في العلوم الإنسانية وعلوم التربية، فاس، الطبعة الأولى، 2019.
- إسماعيل زغودة، بنية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة، عبد الجليل مرتاض نموذجا، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013-2014.
- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1984.
- فاطمة بن يحيى، المكان داخل النص الروائي (الدلالة، الأنماط، الأبعاد)، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجلد1، يناير 2013.
- محمد بازي، البلاغة الكبرى، الجزء الأول، دار كنوز المعرفة للنشر التوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2022.
- محمد سناجلة، رواية الواقعية الرقمية، صفحة كتب،www.facebook /The.books
- زينة برقوق، موقع موضوع الإلكتروني Mawdoo3 . ma // https.
- إسلام ويب، تاريخ النشر03/ 05/ 2011.

(32) كأنها ظلة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى، 2019، ص ص39-40.